

❁ من ملامح تجليات الفاتحة في النظم القرآني: مطلع سورة البقرة أنموذجاً

Among the features of the manifestations of Al-Fatihah

In the Qur'anic composition:

The beginning of Surat Al-Baqarah as a model

د. محمد علي سعيد

جامعة الزيتونة (تونس)

dalitosaid@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2023/09/05 تاريخ القبول: 2024/04/15 تاريخ النشر: 2024/09/15

ملخص:

تعتبر فاتحة الكتاب أحد أبرز المنطلقات في فهم القرآن الكريم. وقد عبر المفسرون في تفاسيرهم عن أهمية سورة الفاتحة ومركزية المعاني والدلالات التي تضمنتها والطرق والشرائع التي نهجتها. وفي هذا السياق ومواصلة لرحلة تدبر القرآن الكريم التي بدأنا من أطروحتي المتحصّل بها على شهادة الدكتوراه: الثاني في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، يتنزل هذا البحث لبيان أولوية الفاتحة بالنظم القرآني بوصفها أم الكتاب من خلال بعض التجليات في مطلع سورة البقرة، إذ أحاول من خلال دراسة الأحرف المقطّعة كوحدة لغوية بيان ملامحها في سورة الفاتحة وتمثّلها في بنية النظم، وكذلك في مستوى استمداد المعنى بالتمثيل لذلك من خلال صفة الرحمة، وتبيين أهمية مناظرة المقاطع القرآنية بعضها ببعض قصد التفكير وتحقيق المعاني واستنباط الدلالات.

الكلمات المفتاحية: الفاتحة، الأحرف المقطّعة، الأسماء الحسنى، الرحيم، الوحدة الدلالية، النظم القرآني.

.Abstract:

Al-Fatihah is considered one of the most important starting points in understanding the Holy Quran. The commentators have expressed in their interpretations the importance of Surat Al-Fatihah, the centrality of the meanings and connotations it contained, and the methods and laws that followed it. In this context and as a continuation of the journey of contemplating the Holy Qur'an that I started from my doctoral dissertation: Al-Matheni (The dual verses) in the Holy Qur'an between theory and practice, this research descends to clarify the priority of Al-Fatihah in the Qur'anic systems as the mother of the book through some manifestations at the beginning of Surat Al-Baqara, as I try through Studying the cut-off letters as a linguistic unit, clarifying its features in Surat Al-Fatihah and its representations in the structure of the verses, as well as in the level of deriving the meaning by representing that through the adjective of mercy, and showing the importance of corresponding the Qur'anic passages with each other in order to reflect, realize the meanings and derive connotations.

Keywords: Al-Fatihah; the cut-off letters; the Most Beautiful Names; the Most Merciful; the semantic unit; the Qur'anic composition.

مقدمة

لقد أولى المفسرون القدامى والمعاصرون فاتحة الكتاب مكانةً عليّةً في علم التفسير باعتبار مركزيتها في القرآن العظيم، وجلالة مقامها إذ تكرّر وتثنّى في التلاوة على امتداد الزمان في الصلوات وخارجها ولا يكاد ينقطع ذكرها آتياً من الوجود. ولئن تفاوت المفسرون في تفسيرها بحسب مناهجهم وشروطهم التي اشترطوها في علم التفسير بقطع النظر عن أسباب التفاوت التي تعود في الغالب إلى المركزية العلمية أقصد مذهب العالم سلوكاً وفقهاً واعتقاداً فإنهم قد اشتركوا في توظيف كثير من علوم الآلة وساروا على هذا القدر من المشترك اللغوي والبلاغي مما يبيّن للدارسين مكانة الإعجاز البياني للقرآن العظيم، ويشجذ الهمم على مواصلة رحلة الاستنطاق والتدبر التي لم تخل منها برهة من حياة السلف لا سيما وأن من القواعد المقررة لديهم: شرف العلم على قدر شرف المعلوم.

ولقد كُتِبَ في تفسير الفاتحة وأسرارها أسفارٌ كثيرة لا يمكن الإحاطة بها خبيراً، ولكل درجاتٍ مما تدبروا فيه وتفكروا وعلى قدر الإخلاص لله في ردّ الكتاب إلى أصوله المحكمات تنقشع سحائب الاختلاف، وتنجلي دلائل المتشابهات. يقول تعالى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7]. ومما جاء في فضل الفاتحة قول النبي ﷺ: " هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ"⁽¹⁾، وعنه ﷺ قَالَ: مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خَدَاجٌ، ثَلَاثًا غَيْرَ تَمَامٍ⁽²⁾.

ولقد حاولتُ في أطروحتي -التي قدّمتها لنيل شهادة الدكتوراه والتي نشرت بعنوان (المثاني والسبع المثاني في القرآن العظيم: تجليات وآفاق)- أن أبين مدى مركزية الفاتحة في النظم القرآني وذلك في الباب الثالث وأما أولى بالردّ إليها ممّا سواها من السور باعتبارها بنصّ الحديث الصحيح أمّا للقرآن، وجليّت بما فتح الله عليّ بعض معاني الأمية في حقّ فاتحة التنزيل، وكان من جملة التوصيات أن يبادر الباحثون إلى تفسير القرآن برّد الآيات إلى مواطنها من فاتحة الكتاب، إذ الفاتحة بمثابة النهر الذي تنبثق منه المعاني والدلالات القرآنية لينهل منها العارفون كلّ على قدر اجتهاده. ومما أبتته أيضاً أنّ الفاتحة تقوم على جملة من الخصائص النحويّة، والمقومات البلاغية ذات تناسق وتكرار يجذّب الباحث صداهما في النظم القرآني إذ ما من سورة إلّا وتعود إلى أمّ الكتاب صياغةً ومقصداً، وأحاول في هذه الدراسة أن أمثّل لذلك بنماذج بيانيّة.

الإشكالية: كيف تتجلى سورة الفاتحة باعتبارها أمّا للقرآن في مطلع سورة البقرة؟ وكيف تردّ إليها المعاني؟

(¹) البخاريّ (محمّد بن إسماعيل)، الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، الحديث رقم 4474، (17/6).

(²) مسلم (أبو الحسين الحجاج)، المسند الصحيح، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كلّ ركعة، وإنّه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلّمها قرأ ما تيسر له من غيرها، حديث رقم 395، (296/1).

خطة البحث: قسّمْتُ البحث إلى مقدّمة وأربعة مطالب على النحو الآتي:

تمهيد: أهميّة الحروف المقطّعة ودراستها:

المطلب الأول: لمخّ الأحرف المقطّعة ﴿أَلِفٌ لَامٌ﴾، ومراتب ذلك:

المطلب الثاني: من معالم الرّحمة الخاصّة

المطلب الثالث: من دلالات الكتاب

المطلب الرابع: مطلع سورة البقرة بين أهل الصراط ومخالفهم

ثمّ خاتمة، وقائمة في المصادر والمراجع.

والله سبحانه من وراء القصد، وصلى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمد.

تمهيد: أهمية الحروف المقطّعة ودراستها

تعتبر الحروف المقطّعة في نظر كثير من المفسّرين مرجعاً للألفاظ ومصدراً يعود إليه أصحاب اللسان في تأملهم لمعاني القرآن وأسمائه واستشراق حيثيات الخطاب إذ ترتبط كثير من الحروف المقطّعة بخطاب النبي ﷺ كمطالع سور طه ويس والقلم، وهو ما يزيد أصحاب اللسان اقتراحاً من لغتهم عندما تعود تأملاتهم في السور القرآنية إلى مفاتيح، ووحدات لغوية يكون لها صدى في تدبر القرآن واستنباط هداياته. ولقد تباينت همم العلماء في الكشف عن أسرار الحروف المقطّعة، وعلاقتها بألفاظ النظم، قال الإمام ابن القيم: "تأمل سرّ: ﴿الَّذِي﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة: فالألف إذا بُدئ بها أولاً كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفتين وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف مُعتمد المخارج الثلاثة التي تتفرّع منها ستة عشر مخرجاً فيصير منها تسعة وعشرون حرفاً عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين مع تضمّنها سرّاً عجباً وهو أنّ للألف البداية واللام التوسّط والميم النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والواسطة بينهما، وكلّ سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق ونهايته وتوسّطه فمشتملة على تخليق العالم وغايته وعلى التوسّط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم..."⁽³⁾.

لقد أناط الإمام ابن القيم المعاني بنوعية الحروف المبتدأ بها، وهو ما يقتضي ضرورة استقراء السور التي تستهلّ بالأحرف المقطّعة ودراستها دراسة موضوعيّة، لعلّها تفصّح عن منهج جديد في فهمها وإدراك أسرارها. ويؤيد ذلك الزركشي إذ يرى أن السور المفتوحة بالحروف المقطّعة قد اختصّت كلّ واحدة منها بوجه حتّى لم تكن لتردّ ﴿الَّذِي﴾ في موضع

(3) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، (174/3).

﴿أَلْبَر﴾ ولا ﴿جَم﴾ في موضع ﴿طِس﴾ لاسيما على رأي القائلين بأنها أعلام للسور وأسماء عليها، قال رحمه الله: "وكذا وقع في كل سورة منها ما كثر ترداده فيما يتركب من كلمها ويوضحه أنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها وحروفها وجدت الحروف المفتحة بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماتها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلماتها وحروفها، فإن لم تجد بسورة منها ما يماثلها في عدد كلماتها ففي أطراد ذلك في المماثلات مما يوجد له التظير ما يشعر بأن هذه لو وجد ما يماثلها لجرى على ما ذكرت لك، وقد اطرد هذا في أكثرها فحق لكل سورة منها ألا يناسبها غير الوارد فيها فلو وضع موضع ﴿ق﴾ من سورة ﴿رث﴾ لم يمكن لعدم التناسب الواجب مراعاته في كلام الله تعالى وقد تكرر في سورة يونس من الكلم الواقع فيها «ألر» مائتا كلمة وعشرون أو نحوها فلهذا افتتحت بـ ﴿أَلْبَر﴾ وأقرب السور إليها مما يماثلها بعدها من غير المفتحة بالحروف المقطعة سورة النحل وهي أطول منها مما يركب على ﴿أَلْبَر﴾ من كلماتها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها فلذلك وردت الحروف المقطعة في أولها ﴿أَلْبَر﴾" (4).

يبيّننا الإمام الزركشي بضرورة اعتماد المنهج المقارن (المناظرة) في عرض مُفتّحات السور بالكلمات المتضمنة تلك الأحرف الفواتح لغاية جليّة وهي التناسب والاطراد الجاري في ذلك وأنه ليس محض صدفة، بل بتقدير ربّانيّ دقيق، وهو ما يفضي بنا إلى التناسب الرقميّ والبيانيّ للكلمات المودعة في أعماق السور.

هذه التأمّلات في الأحرف المقطعة لا تزال تقتضي تدبّراً لعلنا نصل إلى ترجيح للمقصود منها، ولكن ما يهّمنا في هذا البحث مدى تحكّم هذه الأحرف بعملية التّظم في القرآن وتأثيرها من خلال انبناء السور على قوّة الأحرف المودعة في فواتحها. والله أعلم.

(4) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدّين)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، 1376هـ-1957م، (272/1).

المطلب الأول: لمحُ الأحرف المقطّعة ﴿أَلَّ﴾، ومراتب ذلك:

لقد ابتدأت سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿أَلَّ﴾ وقد أطال العلماء الكلام فيها، ومن جملة ما قيل "يحتمل أنّ الحروف المقطّعة كنايةً عن كتابه وآياته، أو آياته أنّه جمعها على ما توجبه الحكمة؛ فجعلها كتاباً أو آياتٍ كتابٍ يتلى؛ أو يكون كنايةً عن الإنباء والإخبار عن الأمم السّالفة الّتي لم يشهدوا رسول الله ﷺ، تلك الأنباء والأخبار الّتي جعلناها كتاباً أو آيات؛ ليعلموا أنّ هذا الكتاب إنّما نزل من السّماء، وأنّه إنّما علم بالوحي من الله" (5).

ومّا جاء في التفسير القرآني للقرآن "أنّ هذه الحروف المقطّعة الّتي بدئت بها بعض سور القرآن الكريم قد انتظمها جميعاً أمران:

- الأمر الأول: أنّها جاءت على رأس هذه السّور، وهذا يعني أنّها مفاتيح لها، يفتح بها هذا الخير الّذي تحمله كلّ سورة في آياتها وكلماتها من مواعظ، وأحكام. ثمّ يعني -من جهةٍ أخرى- أنّها ذات منزلةٍ خاصّةٍ، إذ كانت وحيّاً مباشراً من الله سبحانه، على خلاف ما تلقّى الرّسول - صلوات الله وسلامه عليه - من آيات ربّه وكلماته، بواسطة الرّسول السّماوي، جبريل عليه السّلام.

- الأمر الثّاني: الّذي انتظم هذه الأحرف أنّه قد أعقبها، واتّصل بها ذكر القرآن، تنويهاً به، أو بياناً لما يحمل من هدًى ونورٍ، أو إشارةً إلى منّةٍ من منن الله على عباده المتّقين، أو قسماً بجلاله وعظمته، أو تشريعاً للأدوات الّتي تخدم هذا الكتاب، وتعمل في كتابته" (6).

إنّ من ألطف ما يشدّ الانتباه في هذه التّفسيرات اعتبار هذه الأحرف من الكناية وهي "الدّلالة على الشّيء بغير لفظه الموضوع له، بل لوازمه" (7) أو بعبارةٍ أخرى "هي أن يعبر

(5) تأويلات أهل السّنة، المتريدي (أبو منصور)، المحقّق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط1، 1426هـ-2005م، (6/419).

(6) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب (عبد الكريم)، دار الفكر العربي القاهرة، د.ط، د.ت، (13/94).

(7) معجم الفروق اللّغويّة، العسكري (أبو هلال)، تحقيق: الشّيخ بيت الله بيّات، مؤسسة النّشر الإسلاميّ التابعة لجامعة المدرّسين بـ "قم"، ط1، سنة 1412هـ، ص128.

عن شيءٍ؛ لفظاً كان أو معنًى، بلفظٍ غير صحيحٍ من الدلالة عليه؛ لغرضٍ من الأغراض⁽⁸⁾.
و"الكناية من أساليب البيان التي لا يقوى عليها إلا كلٌّ بليغٍ متمرسٍ بفنِّ القول. وما من شكٍّ في أنّ الكناية أبلغ من الإفصاح والتعريض، أوقع في النفس من التصريح. وإذا كان للكناية مزيةٌ على التصريح فليست تلك المزية في المعنى المكتى عنه، وإنما هي في إثبات ذلك المعنى للذي ثبت له"⁽⁹⁾. ومن بلاغتها "تجسيد المعاني وإبرازها في صورةٍ محسوسةٍ تزخر بالحياة والحركة، فيكون ذلك أدعى لتأكيد المعاني ورسوخها في النفس"⁽¹⁰⁾.

وإذا عرضنا هذه المعاني على الأحرف فإنَّ وجه الكناية فيها يكمن في رمزيتها، وإحالتها العقول لتدبر معانيها، فهذا هو الجانب الجماليّ الأبدى لهذه الأحرف إذ تستمر معانيها وتتوافر في هدايات المتفكرين، فيبدو للعالم الراسخ منها ما لا يبدو لآخر، من دون ما حسم ولا ترجيح، وكذلك من روعة كنياتها أن تكون مكنونةً في ظواهر الكلم وبواطنه.
وها أنا أعرضُ الأحرف المقطّعة على نظام الأحرف مسلسلًا في الفاتحة بقطع النظر عن المعنى وقد بدا لي أنّ لها حضورين:

- حضوراً ترتيبياً على التوالي في كلمات:
- «المستقيم» - «المغضوب» من أولها.
- «العالمين» من أوسطها.
- حضوراً ترتيبياً لا على التوالي (أي بحيلولة حرف آخر) في كلمات «الحمد» - «الرحمن» - «الرحيم».
- حضوراً غير ترتيبيّ أي أنّ الأحرف يلاحظ وجودها: وذلك في كلمة «مالك» بقراءة المدّ في الميم.

(8) التعريفات، الجرجاني (الشريف)، دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، ط1، سنة 1403هـ-1983م، ص 187.

(9) علم البيان، عتيق (عبد العزيز)، دار النهضة العربيّة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، د.ط، 1405هـ-1982م، ص 223.

(10) البلاغة، البيان والبدیع، مناهج جامعة المدينة العالمية، نشر جامعة المدينة العالمية، المرحلة بكالوريوس، كود المادة: LARB4093، ص 290. وهذا الكتاب مندرجٌ ضمن قسم الأدب والبلاغة في المكتبة الشاملة.

لقد بلغ عدد الكلمات التي تظهر فيها الوحدة «الم» سبعاً، وهذه الوحدة إما أن يكون لها الصدارة من الكلام وهي «ال» التعريف مضافاً إليها الميم التي في أول مفعول من الثلاثي ككلمة المغضوب، أو أن تكون «ميم» اسم الفاعل ككلمة المستقيم من الثلاثي المزيد. وقد تكون في وسط الكلام زائدة عن الجذر الأصلي لتأدية الصيغة ككلمة «العالمين»، كما فُرت هذه الوحدة ونجد لها صدًى في كلمة «الحمد»، «الرحمن»، «الرحيم»، مما يؤكد لي أنّ هذه الأحرف المقطّعة لها أصولها في بعض ألفاظ الفاتحة من قبل أن تنتشر في ألفاظ سورة البقرة الآتية وهي على الترتيب من دون المكررات:

المفلحون- المفسدون- الموت- الملائكة- ألم- الظالمين- المن- المحسنين- المسكنة- الموتى-
الماء- المساكين- الملكين- المرء- المشركين- المشرق- المغرب- المصير- المسجد- الممترين-
المهتدون- المروة- المسخر- الميتة- المغفرة- المال- الموفون- المتقون- المعروف- المعتدين-
المساجد- المشعر- المهاد- الميسر- المفسد- المصلح- المحيض- المتطهرين- المؤمنين- المطلقات-
المولود- الموسع- المقتّر- الملاء- الملك- المرسلين- المس.

فليس لهذه الوحدة حضور في حشو كلمة إلا في موضعين: «العالمين»، و«الظالمين»: ولكأنّ هذه الإشارة البيانية أنّ الله سبحانه فطر الوجود في ظلمة، كما بيّن عبد الله بن عمرو قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ أَلْقَى عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ يَوْمِئِذٍ، فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ نُورِهِ يَوْمِئِذٍ، اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ، ضَلَّ فَلِذَلِكَ أَقُولُ: جَفَّ الْقَلَمُ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»⁽¹¹⁾.

ولعلّ مصطلح «الظالمين» في أحد تصريفه وإن كان شاملاً للكافرين كقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: 254]، والمشرّكين ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، لكنّه عند التخصيص ألصق باليهود والنصارى، فهذا الامتداد في معنى الظالمين للمغضوب عليهم والضالّين المذكورين في فاتحة الكتاب إنّما مأتاه ظلمات الأصل التي

⁽¹¹⁾ رواه أحمد في المسند، وهو قطعة من حديث، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (220/11)، الحديث رقم 6644.

بُثُوا عليها ولم يفارقوها فهذه هي صورتهم في العالمين، ظلماتٌ متناثرة لِفِتْنِهَا حضور في كلِّ لمحّةٍ من لمحات الوجود. فالمصطلحان أي «العالمين» و«الظالمين» يصوّران لنا من خلال الاشتقاق الواقع الوجوديّ في منطلقاته لولا رحمة الله ونوره الذي تفضّل به على من شاء من عباده. ومن روائع المثاني القرآنيّة في حقّ هذه المفردة أي «العالمين» أنّه قُرئ فيها في سورة الرّوم «العالمين» بكسر اللّام وهي إحدى القراءتين عن عاصم، وهذا من التّخصيص التّادر، "فالحجّة لمن فتح: أنّه جعله جمع «عالم» والعالم يحتوي على كلّ المخلوقات من إنس، وجانّ، وجمادٍ، وحيوانٍ. والحجّة لمن كسر: أنّه جعله جمع «عالم» لأنّ العالم أقرب إلى الاعتبار من الجاهل - ودليله قوله: ﴿وَمَا يَعْقُلُهَا إِلَّا أَلْأَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: 43]"⁽¹²⁾.

بينما تنوّعت الصّيغ الأخرى بين أسماء الفاعل التي كانت لها الهيمنة، إفراداً ككلمة «المصلح»، «الموسع»، «المقتّر»، أو جمعاً وهو الأكثر ككلمة «المفلحون»، «المحسنين»، «الموفون»... وهذه الصّفات امتدادٌ للذين أنعم عليهم، وأضاف الصّراطُ إليهم.

واسم المفعول في كلمة المطلقات والمستخّر والمرسلين والمولود.

واسم المكان كالمسجد، والمشرق والمغرب مثلاً.

والصّفة المشبّهة: ككلمة الميت.

وصيغة المبالغة: ككلمة مسكين.

والمصادر: الموت - المس - المرنّ (في ثاني الاستعمالين في البقرة: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُبْطِلُوا صِدْقَتَكُمْ بِالْمَنِّ وَالْإِذْيِ﴾ [البقرة: 264].

والمصدر الميمي: المحيض - المشعر - المصير.

وأسماء الجنس: المال - المرء - الماء - المرنّ في الاستعمال الأوّل قوله تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَنَمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: 57].

⁽¹²⁾ الحجّة في القراءات السّبع، ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين)، المحقّق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلّيّة الآداب، جامعة الكويت، دار الشّروق، بيروت، ط4، 1401هـ، ص 282.

وكذلك كلمة «أَمْ: وهي "أَمْ": الألف: همزة استفهام تفيد التّقرير. لم: حرف نفي وجزم وقلب"⁽¹³⁾. وقد وردت سبعاً وسبعين مرةً في الكتاب كلّهُ، وكان أوفُها حظاً استعمال العبارة: «ألم تر» ثم «ألم تعلم».

فكلّ كلمةٍ من هذه الكلمات المتضمنة لوحدة «الم» لا بدّ أنّها تعبّر عن معنى إجماليّ في علاقةٍ متينةٍ بأمّتهات المعاني في سورة الفاتحة، حيث تكون الصفّات دلائل على الموصوفين بها، كما تجلّت لنا رحمة الله العامّة والخاصّة في هذه السّورة، ومن مظاهرها في نظم سورة البقرة «قصص القرآن» كما في:

قصة آدم في قوله: ﴿فَلَقِيَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتَيْنِ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 37]، فإنّ إنظاره لعدوّه من دلائل رحمته العامّة كما أنّ اجتباؤه لآدم وتوبته عليه من رحمته الخاصّة، وهذا هو الشّيء الذي لأجله اقترن اسم الرحيم بالتّوّاب، وبالمغفرة، كما في قوله ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أربع مرّات، وقوله ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ست مرّات.

وفي قصة موسى: ﴿فَنَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ هُوَ النَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 54].

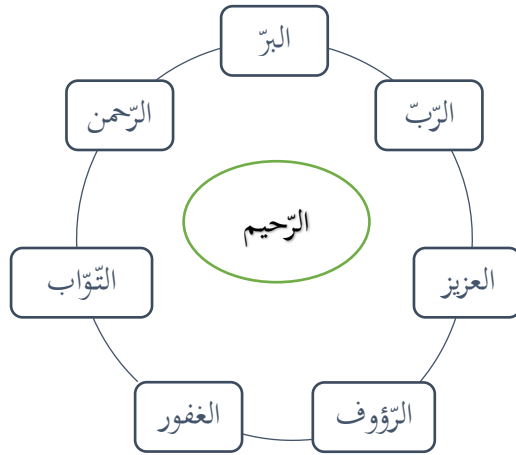
وفي قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في قوله على لسانهما: ﴿وَتَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 128].

أمّا «الغفور الرحيم» فقد اقترنا بالجانب التشريعيّ في المواضع الستّة من سورة البقرة، كما اقترن الموضع الأخير من قوله ﴿التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ به كذلك أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنْ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾⁽¹⁵⁹⁾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 159-160]، ومن تلك الآيات التي تبيّن قوة تضامّ الاسمين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 173]، وقوله: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسٍ جَنَفًا أَوْ إِنْمَاءً فَاصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 182].

(13) صالح (مبحث عبد الواحد)، الإعراب المفصل لكتاب الله المرتّل، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ-1993م، (44/1).

المطلب الثاني: من معالم الرحمة الخاصة

إن تجليات الرحمة الخاصة تعتبر امتداداً وتفصيلاً لاسم الرحيم في فاتحة التنزيل، إذ نلغيه في القصص القرآني الذي هو من خصائص المشهد الكوني، حيث نجد تسليط الضوء على الأنبياء في حركتهم الدعوية من دون سائر الناس على أزمينة متفاوتة بل متباينة في القدم دليلاً على الخصوصية بل على التشريف والاختصاص، فلا بد أن تكون الألفاظ المؤدية مقاصدها من تلك المعاني السامية في قمة الإحكام والإعجاز، كما أن رحمة الله من خلال التشريع تعتبر مكملاً لتلك الرحمة في المشهد الكوني، وهو ما يجعلنا نرى تصريف هذا الاسم المبارك بين التوبة والمغفرة، وكلها من لوازم كونه رحيماً، ولعل موضع هذا الاسم من نظم الآي فواصله، بل هو آخر اسمين في كل المواضع القرآنية التي اقترن بها: فإنه يدور في اقترانه بسبعة أسماء:



ومما اقترن به اسم «الرحيم» كذلك:

الرحمن كما في مطلع الفاتحة.

الرؤوف: "الرأفة: أشد من الرحمة"⁽¹⁴⁾.

⁽¹⁴⁾ الماوردي (أبو الحسن)، التكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، (201/1).

وهذا يعتبر امتداداً لفكرة أنّ «الرحيم» أخصّ من «الرحمن»، فهو من جملة التخصيص بعد التعميم، ولعلّ الفاتحة أشارت إلى ذلك من خلال قوله تعالى: ﴿الْرحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ۝۲﴾ [الفاتحة: 2] (15).

العزیز: واختصّت به سورة الشعراء ومن ذلك تكرّر المقطع: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝۸﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿الشعراء: 8-9﴾، وذكر في باقي السور مرّةً مرّةً وهي: الروم في قوله: ﴿بَصُرَ اللَّهُ يَـبْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: 5]؛ والسجدة في قوله: ﴿ذَلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [السجدة: 6]، ويس في قوله: ﴿تَنزِيلُ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [يس: 5]، والدخان في قوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝۴۰﴾ يَوْمَ لَا يَغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿۴۱﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الدخان: 40-42].

وقد اقترن اسم العزیز وهو من أسماء الغلبة والقوّة بالرحمة، ليرواح في المعنى السياقي بين أخذه لأعدائه بعزّته، ونصره لأوليائه برحمته. ولقد اقترن تنزيل الكتاب بعزّته كما في سورة يس وفيه فائدة وهي أن ذكر التنزيل تخصيص من عموم الصّراط المستقيم، قال ابن عاشور في تفسيره: "الصّراط المستقيم: الهدى الموصل إلى الفوز في الآخرة، وهو الدّين الذي بعث به النّبيّ ﷺ، والخلق الذي لقّنه الله، شبه بطريق مستقيم لا اعوجاج فيه في أنّه موثوق به في الإيصال إلى المقصود دون أن يتردّد السائر فيه، فالإسلام فيه الهدى في الحياتين، فمتّبعه كالسائر في صراطٍ مستقيم لا حيرة في سيره تعثره حتّى يبلغ المكان المراد، والقرآن حاوي الدّين فكان القرآن من الصّراط المستقيم، وتنكير «صراط» للتوصّل إلى تعظيمه" (16).

وبيّنت سورة الدّخان أنّ ظهور أهل الرحمة كذلك في مواقف القيامة لعزّته، وورد ذلك في موضع الاستثناء بـ «إلا» وهذا الاستثناء يفيد التّخصيص كذلك.

(15) ينظر: المثاني والسبع المثاني في القرآن العظيم: تجليات وآفاق، سعيد (محمّد علي)، مجمّع الأطرش للكتاب المختصّ، ط1، 2023، ص 344.

(16) التحرير والتّوير، ابن عاشور (محمّد الطّاهر)، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، د.ط، 1984م، (346/22).

الرَّبِّ: كما في قوله تعالى في سورة يس: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: 58]، في أحد مشاهد المصير، حيث تتجلى رحمة الله الخاصة في أكمل صورة، واتصال الرب بالرحيم تجلٍّ من تجليات سورة الفاتحة فكأنّ العالمين انصهروا بين المبدئ والمنتهى، "والمعنى: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم. وقوله: سَلَامٌ بدلٌ من «ما» المعنى: لهم ما يتمنون سلامًا، أي: هذا مئى أهل الجنة أن يُسلم الله عليهم، وقَوْلًا منصوب على معنى: سلامٌ يقوله الله قَوْلًا. وقال أبو عبيدة: «سلامٌ» رفع على «لهم» فالمعنى: لهم فيها فاكهةٌ ولهم فيها سلامٌ. وقال الفراء: معنى الكلام: لهم ما يدعون مسلّم خالص، ونصب القول، كأنك قلت: قاله قَوْلًا، وإن شئت جعلته نصبًا من قوله تعالى: ولهم ما يدعون قَوْلًا، كقولك: عِدَّةٌ من الله" (17).

البر: قد ذكر الماوردي في تأويل هذا الاسم ثلاثة معانٍ: أحدها: الصادق، الثاني: اللطيف، الثالث: فاعل البر المعروف به (18)، وزاد ابن الجوزي معنىً رابعًا وهو العطوف على عباده المحسن إليهم (19)، وقال ابن عاشور المحسن في رفقٍ ثم ذكر موقع (هو) فقال "وضمير الفصل لإفادة الحصر وهو لقصر صفتي البر والرحيم على الله تعالى وهو قصر ادّعائي للمبالغة لعدم الاعتداد ببرور غيره ورحمة غيره بالنسبة إلى برور الله ورحمته باعتبار القوّة فإنّ غير الله لا يبلغ بالمبرة والرحمة مبلغ ما لله وباعتبار عموم المتعلّق، وباعتبار الدوام لأنّ الله برٌّ في الدنيا والآخرة، وغير الله برٌّ في بعض أوقات الدنيا ولا يملك في الآخرة شيئاً" (20).

ولم يكن لاسم «الرحيم» سبقٌ لاسم ما إلّا في موضعين اثنين:

قوله في هود: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، وهذا التفاعل الإيقاعي بين الأسماء الحسنى المنتمية إلى ذات الدلالة وإن تباينت معانيها دليل على جمالية الخطاب القرآني، وأنّ من أوضح تلك الجماليات مطالب الأسماء الحسنى، فمن أراد أن

(17) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (أبو الفرج)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1422هـ، (528/3).

(18) ينظر: التكت والعيون، الماوردي، (384/5).

(19) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (179/4).

(20) التحرير والتنوير، ابن عاشور، (58/27).

يعلم حقائق القرآن فعلية بطلبها في ذات الله قبل كل شيء. والودود كما قال ابن الأنباري: "معناه: المحب لعباده، من قولهم: وددت الرجل أودّه وُدّاً ووُدّاً، ويقال: وددت الرجل وداداً وودادةً ووودادةً. وقال الخطّابي: هو اسم مأخوذ من الودّ وفيه وجهان: أحدهما: أن يكون فعولاً في محلّ مفعول، كما قيل: رجل هيوّب، بمعنى مهيب، وفرس ركوب، بمعنى مركوب، فالله سبحانه مودود في قلوب أوليائه لما يتعرّفونه من إحسانه إليهم. والوجه الآخر: أن يكون بمعنى الواد، أي أنه يودّ عباده الصالحين، بمعنى أنه يرضى عنهم بتقبّل أعمالهم ويكون معناه: أن يودّدهم إلى خلقه، كقوله عزّ وجلّ: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الرَّحْمَنُ وُدّاً﴾ [مریم: 96]"⁽²¹⁾.

وقوله في سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: 2]. قال السّهيلي: "فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة فأما بالفضل والكمال وإما بالطبع لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان فالرحمة تشملهم والمغفرة تخصّهم والعموم بالطبع قبل الخصوص"⁽²²⁾، وعقب عليه ابن القيم "ختم الآية بصفتين تقتضيان غاية الإحسان إلى خلقه وهما الرحمة والمغفرة فيجلب لهم الإحسان والتّفع على أتم الوجوه برحمته ويعفو عن زلّتهم ويهب لهم ذنوبهم ولا يؤاخذهم بها بمغفرته فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ فتضمّنت هذه الآية سعة علمه ورحمته وحكمه ومغفرته وهو سبحانه يقرن بين سعة العلم والرحمة كما يقرن بين العلم والحلم، فمن الأوّل قوله: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾ [غافر: 7]، ومن الثاني: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [النساء: 12]، فما قرن شيء إلى شيء أحسن من حلم إلى علم، ومن رحمة إلى علم... وقدم الرّحيم في هذا الموضع لتقدّم صفة العلم فحسّن ذكر الرّحيم بعده ليقترن به فيطابق قوله ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً﴾. ثم ختم الآية بذكر صفة المغفرة لتضمّنها دفع الشرّ وتضمّن ما قبلها جلب الخير. ولما كان دفع الشرّ مقدّماً على جلب الخير قدّم اسم الغفور على الرّحيم حيث وقع،

(21) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (397/2).

(22) بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (64/1).

ولما كان في هذا الموضوع تعارضٌ يقتضي تقديم اسمه الرحيم لأجل ما قبله قدّم على الغفور⁽²³⁾.

إنّ هذا التقارب الدلالي بين هذه الأسماء الحسنى يجعلها تتجاذب فيما بينها، فيكمل بعضها بعضاً، ويجاوره، ولهذا الاقتران مقتضياته، يقول ابن القيم: "ما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور فإنّ الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبّه، وكذلك قد يرحم من لا يحبّ والرّبّ تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه ويرحمه ويحبّه مع ذلك فإنّه يحبّ التّوابين وإذا تاب إليه عبده أحبّه ولو كان منه ما كان"⁽²⁴⁾، وقال في موضع آخر "في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَةً رَّحِيمٍ وَدُودٌ﴾ [هود: 90]، وفيه سرٌّ لطيفٌ وهو أنّه يحبّ التّوابين وأنّه يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبّه كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222] فالتائب حبيب الله فالودّ أصفى الحبّ وألطفه"⁽²⁵⁾.

المطلب الثالث: من دلالات الكتاب

لقد صرّح مطلع سورة البقرة باسم جنس الكتاب، وأنّ فيه الهداية، ولكن المشار إليه هو القرآن الكريم، وقد دلّت فاتحة الكتاب على إنزال الكتب من جهاتٍ عديدةٍ منها:

- الألوهيّة الّتي هي مقتضى اسمه عزّ وجلّ، فهو مشتقّ في أرجح القولين، والّذين قالوا بالاشتقاق... أرادوا أنّه دالٌّ على صفةٍ له تعالى وهي الإلهيّة كسائر أسمائه الحسنى كالعليم والقدير والغفور والرحيم والسميع والبصير فإنّ هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريبٍ وهي قديمةٌ والقديم لا مادّة له⁽²⁶⁾. قال ابن القيم: "فمن أنكر حقيقة الإلهيّة ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها وما شرعت لأجله؟

(23) م.ن، (79/1).

(24) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، المحقّق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت-لبنان، د.ط، د.ت، ص 93.

(25) روضة المحبّين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، د.ط، 1403هـ-1983م، ص 47.

(26) ينظر: بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، (22/1).

كيف يستقيم له العلم بأنّها هي الغاية المقصودة بالخلق، والتي لها خلقوا، ولها أرسلت الرّسل، وأنزلت الكتب، ولأجلها خلقت الجنة والنّار⁽²⁷⁾.

- العبوديّة المنصوص عليها في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5]، فهي من أعظم المقتضيات لذلك⁽²⁸⁾.

- طريق المعاد الذي يتنافس في درجات ثوابه المتنافسون⁽²⁹⁾.

وإذا نظرنا إلى الكتاب باعتبار الإشارة، فسنجد أن لا نظير للإشارة إليه بـ(ذلك) فهذا يعتبر من المفاريد التي لا ثاني لها، بينما الإشارة إليه بهذا في ثلاثة مواضع، وهي على التّرتيب: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَرَكَ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: 92].

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَرَكَ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: 155].

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ مُّؤَمِّينٌ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: 12].

وأشير إليه باسمه أي «هذا القرآن» خمس عشرة مرّة منها أربع مرّاتٍ في سورة الإسراء. وهذا ظاهره التّعارض كما أشار إليه الشنقيطي في كتابه القيم دفع إيهام الاضطراب بقوله: "وللجمع بين هذه الآيات أوجه: الوجه الأوّل: ما حرّره بعض علماء البلاغة من أنّ وجه الإشارة إليه بإشارة الحاضر القريب، أنّ هذا القرآن قريبٌ حاضرٌ في الأسماع والألسنة والقلوب، ووجه الإشارة إليه بإشارة البعيد هو بعد مكاتته ومنزلته من مشابهة كلام الخلق، وعمّا يزعمه الكفّار من أنّه سحرٌ أو شعرٌ أو كهانةٌ أو أساطير الأولين.

(27) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، الطّبعة الأخيرة، 1408هـ-1988م، (1/118).

(28) ينظر: م. ن، (2/130).

(29) ينظر: م. ن، (3/264).

الوجه الثاني: هو ما اختاره ابن جرير الطبري في تفسيره من أنّ ذلك إشارة إلى ما تضمنه قوله: «الم»، وأنه أشار إليه إشارة البعيد لأنّ الكلام المشار إليه منقضى، ومعناه في الحقيقة القريب لقرب انقضائه، وضرب له مثلاً بالرجل يحدث الرجل فيقول له مرّة: «والله إنّ ذلك لكما قلت»، ومرّة يقول: «والله إنّ هذا لكما قلت»، فإشارة البعيد نظراً إلى أنّ الكلام مضى وانقضى، وإشارة القريب نظراً إلى قرب انقضائه.

الوجه الثالث: أنّ العرب ربّما أشارت إلى القريب إشارة البعيد، فتكون الآية على أسلوب من أساليب اللغة العربيّة... وهذا القول الأخير حكاه البخاري عن معمر بن المعثني أبي عبيدة، قاله ابن كثير، وعلى كلّ حال فعمامة المفسرين على أنّ ذلك الكتاب بمعنى هذا الكتاب⁽³⁰⁾.

وبعد برهنة من التفكير، بدا لي أنّ المشار إليه البعيد هو الكتاب ذو الأحرف التي يوصف بها كلام الله عزّ وجلّ من حيث تخالف أحرفنا التي نتكلّم بها، فقد نصّ أئمة الحديث والسنة أنّ "كلام الله غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود وأنّه سبحانه يتكلّم إذا شاء بما شاء، وأنّ كلامه يسمع ويتلى وأنّه بحرفٍ وصوت"⁽³¹⁾، قال ابن تيمية: " فكلامه يشتمل على حروفٍ وهو يتكلّم بصوتٍ نفسه والعبد له حياةٌ وعلمٌ وقدرةٌ وسمعٌ وبصرٌ وكلامٌ، وكلام العبد يشتمل على حروفٍ وهو يتكلّم بصوتٍ نفسه"⁽³²⁾.

⁽³⁰⁾ دفع إبهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي (محمد الأمين)، مكتبة ابن تيمية: القاهرة، توزيع: مكتبة الخزان: جدة، ط1، 1417هـ-1996م، ص 5-6.

⁽³¹⁾ رسالة السجزي إلى أهل زيد في الردّ على من أنكر الحرف والصوت، السجزي (أبو نصر عبيد الله)، المحقق: محمد باكرم با عبد الله، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربيّة السّعودية، ط2، 1423هـ-2002م، ص 21.

⁽³²⁾ مجموع الفتاوى، ابن تيمية (تقيّ الدّين)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربيّة السّعودية، د.ط، 1416هـ-1995م، (66/12).

فهذا البعيد الذي لا يمكن إدراكه هو الوجه الغيبي للقرآن الكريم في اتصاله بعالم الغيب، وهو الذي يفتح الله ما شاء منه لعباده ليعرفوا بعض أسرارهِ، ووجهه الذي قبلنا هو المتنزل في عالم الشهادة، وقد روى أبو عبيد في فضائل القرآن مرسلاً عن الحسن: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى آيَةً إِلَّا لَهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ، وَكُلُّ حَرْفٍ حَدٌّ، وَكُلُّ حَدٍّ مَطْلَعٌ». قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا الْمَطْلَعُ؟ قَالَ: يَطْلُعُ قَوْمٌ يَعْمَلُونَ بِهِ⁽³³⁾.

وإذا كان الله يقول: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكُمْتُ رَبِّي لَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كِمْتُ رَبِّي وَلَوْ جُنَّا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: 109]، والكلمات جماع الألفاظ والمعاني، فإذا كانت الألفاظ تمتد، وهناك فرضيات لا متناهية في وصل الآية بالآية، والسورة بالسورة، فكيف بالمعاني التي هي أرواح، بل كيف بالمقاصد؟!

إنّ من إعجاز النظم القرآني أنّه يسبح في إمكانات لا متناهية من الدلائل والمعاني، وتتعدد الصور لذلك، وقد جعل ابن عاشور قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: 27]، نظيراً لآية الكهف⁽³⁴⁾، -وأرى أنّها المثني الأنسب لها للاشتراك بينهما في الوحدات-

(33) فضائل القرآن، ابن سلام (أبو عبيد القاسم)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، ط 1، سنة 1415هـ-1995م، باب فضائل علم القرآن والسُّعْي في طلبه، ص 98، قال محقق المطالب العالية: وهذا الإسناد على إرساله فيه: 1- حجاج بن أرقطه ضعيف ويدّلس. كما يظهر هذا من ترجمته في التهذيب (2/172). 2- علي بن زيد ضعيف الحديث. فهذه اللفظة وهي ما في حديث البزار صحيحة بحديث أبي الأحوص عن ابن مسعود رضي الله عنهم أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: لو كنت متخذاً خليلاً لآخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله، وأنزل القرآن على سبعة أحرفٍ لكلٍّ حَرْفٍ مِنْهَا ظَهْرٌ وَبَطْنٌ. أخرجه أبو يعلى، (5/79)، والطحاوي في مشكل الآثار (4/182) وفيه سقط، والطبراني في الكبير (10/129) وفي الأوسط (ج 1/433)، والبيهقي في تفسيره (1/46) من طريق جرير بن عبد الحميد، عن مغيرة، عن مقسم الضبي، عن واصل بن حيان، عن عبد الله بن أبي الهذيل به. وهذا إسنادٌ صحيح، مغيرة وإن كان مدلساً، إلا أن هذا في روايته عن إبراهيم التيمي فقط، كما في ترجمته في التهذيب (10/241). فهذا الشاهد لحديث الباب يرقّيه إلى الصحيح لغيره. ينظر تخريجه كاملاً في: ابن حجر العسقلاني، المطالب العالي بَرَوَائِدِ المسانيد الثمانية محققاً، تحقيق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط 1، د.ت، ط، كتاب فضائل القرآن، الحديث رقم [3479]، (14/334).

(34) ينظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، (16/52).

ثم استرسل في بيان الأسرار البلاغية ذوات الأبعاد الجمالية فقال: "ولما كان شأن ما يخبر الله به على لسان أحد رسله أن يكتب حرصاً على بقائه في الأمة، شبّهت معلومات الله المخبر بها والمطلق عليها كلمات بالمكتوبات، ورمز إلى المشبه به بما هو من لوازمه وهو المداد الذي به الكتابة على طريقة المكتبة، وإثبات المداد تخيل كتخيل الأظفار للمنيّة، فيكون ما هنا مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ فإنّ ذكر الأقلام إنّما يناسب المداد بمعنى الحبر... وأمّا نفاد كلمات الله بمعنى تعلّقات علمه فمستحيل، فلا يفهم من تقييد نفاد كلمات الله بقيد الظرف -وهو قبل إمكان نفاد كلمات الله- ولكن لما بني الكلام على الفرض والتقدير بما يدلّ عليه «لو» كان المعنى لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي وكانت كلمات ربّي ممّا ينفد لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربّي» (35).

لنعد إلى سرّ الإشارة إلى الكتاب من بعيد، وهو ما يتطلب العكوف طويلاً، والتزام التدبّر سبيلاً لمعرفة حقائقه، ولعلّ اقتران الأحرف «الم» بالكتاب ممّا يقوّي تقدير المعنى أن تكون من جملة الإلهيات، أو السمعيّات، ويحيل العقل بالضرورة أن تكون معنيّ لشيء مخلوق، أو معهود في عالم الشهادة، إذ أغلب تصاريف الأحرف المقطّعة مقترنة بالكتاب وهو كلام الله أي صفة من صفاته، فالذين قالوا إنّ من أسماء الله، أو كلّ حرفٍ منه دلالة على اسم، أو هو اسم للقرآن، قولهم وجيهٌ وراجحٌ للأسبقية الزمانيّة اللامتناهية في القدم وللترتيب الذكريّ، ومع اهتمام علماء الأمة بنقل التّفسير عن رسول الله ﷺ لم يصلنا فيها تفسير نبويّ مباشر وحاسم، وهو ما جعل طائفةً يفوّضون معانيها إلى الله ويرون السكوت عنها أسلم من التعرّض لمعناها من غير مستندٍ شرعيّ، مع الجزم بأنّ الله تعالى لم ينزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها (36).

(35) م.ن، (53/16).

(36) ينظر: تيسير الكريم الرّحمن في تفسير كلام المتّان، السّعدى (عبد الرّحمن)، عبد الرّحمن بن معلا اللّويحق، مؤسسة الرسالة، ط1،

المطلب الرابع: مطلع سورة البقرة بين أهل الصراط ومخالفهم

إنَّ الكتاب مع صفات المتقين حتّى قوله «المفلحون» من تفاصيل قوله: ﴿صِرْطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: 6]، ويكون قوله من بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6] إلى الآية العشرين أعني قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 20]، من تفصيل ملّة الكفر، وبناءً للمعارف على المعنى الوارد في قوله: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فإنّ هنا ذكر طائفتين هم الكافرون والمنافقون، والله جامعهما معاً في جهنّم.

"وكان ابن عباس يرى أنّ هذه الآية [البقرة: 6] نزلت في اليهود الذين كانوا بنواحي المدينة على عهد رسول الله ﷺ، توبيخاً لهم في جحودهم نبوّة محمد ﷺ وتكذيبهم به، مع علمهم به ومعرفتهم بأنّه رسول الله إليهم وإلى الناس كافّة"⁽³⁷⁾.

وأيّاً كان سبب نزولها، فإنّ تناظر المقاطع وتكرّر الفواصل يمكن أن يقرب لنا الصّورة ويكشف بعض ملامحها:

فإنّ الكفر هاهنا في مقابلة لطيفة للإيمان السابق ذكره في مطلع البقرة، فكما أثنى القرآن على المؤمنين من أهل الكتاب في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]، -وهذا أحد تقديرين في الآية⁽³⁸⁾-،

⁽³⁷⁾ جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ-2000م، (251/1).

⁽³⁸⁾ ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (29/1).

فتكون الآية السادسة تكميلاً للمعنى السابق، وتبيانا للكافرين منهم، فهذا ليس عامًا في جميع الكافرين⁽³⁹⁾، وأقرب نظير في النص القرآني من حيث الفاصلة يؤكد هذا المعنى قوله: ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَنْهُمْ عَهْدًا عَبْدَهُ، فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 100]، وفي الربع الأول من القرآن نفي الإيمان في مواضع كثيرة عن أهل الكتاب، وهو ما يعكس اتحاد النظام والتسلسل الدقيق، ويشهد له أيضًا ذكر الكافرين من أهل الكتاب بإزاء المنافقين في مواضع متعددة لعل أصرحها دلالة قوله تعالى في الحشر: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أَخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: 11].

أما التسوية بين الإنذار وعدمه في حق الكافرين أعني قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: 6]، فقد وجد في موضع آخر عدا آية البقرة وهو:

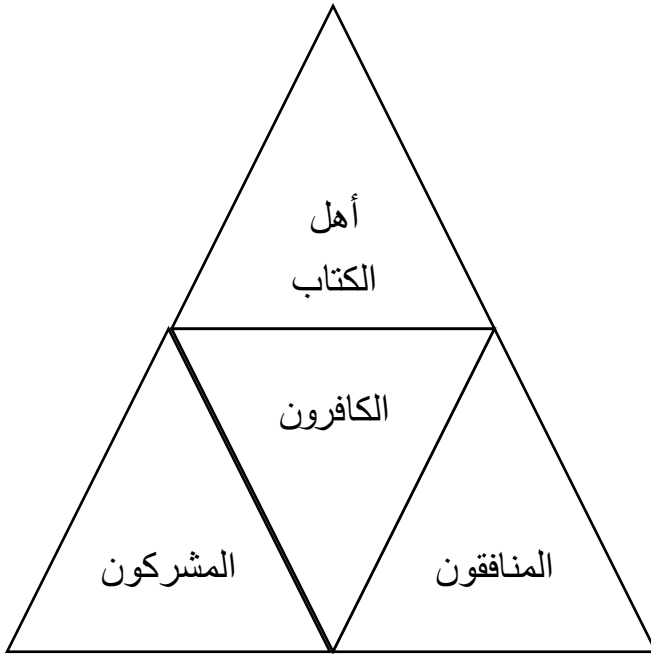
- قوله تعالى: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: 10]، وهم كفار مكة، فكانت هذه الآية بمثابة المثني التكميلي الذي يحقق عدل النص القرآني في تقسيمه المقاطع بحسب الأصناف. ولو اقتصرنا على قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: 6].

⁽³⁹⁾ قال الشنقيطي: "هذه الآية تدل بظاهرها على عدم إيمان الكفار، وقد جاء في آياتٍ أخر ما يدل على أنّ بعض الكفار يؤمن بالله ورسوله كقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَشَاءُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ الآية [الأنفال: 38]، وقوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: 94]، وكقوله: ﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ [العنكبوت: 47]. ووجه الجمع ظاهر، وهو أن الآية من العام المخصوص، لأنها في خصوص الأشقياء الذين سبقت لهم في علم الله الشقاوة المشار إليهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى تَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: 96-97]، ويدل لهذا التخصيص قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]. وأجاب البعض بأن المعنى لا يؤمنون، ما دام الطبع على قلوبهم وأسماعهم والغشاوة على أبصارهم، فإن أزال الله عنهم ذلك بفضلهم آمنوا". ينظر: دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب، ص 8.

من ملامح تجليات الفاتحة في النظم القرآني: مطلع سورة البقرة أنموذجاً

وهذا التناظر بين المقاطع، ومقابلة بعضها ببعض، يؤكد لنا قاعدةً جليلاً في التفسير، وهي أنّ التثنية بمحرك البحث بين وحدات الآي، وتعاهد المعنى السياقي لتحديد المعنى بالنزول أمرٌ ضروري لا بدّ منه في تحقيق جماع المعنى.

والذي استفدناه من خلال تفصيل أمر الكافرين في القرآن أنّها تعود إلى ثلاث طوائف:



ثمّ ينتقل بنا القرآن إلى بناءٍ جديدٍ من أساس قوله تعالى في سورة الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وذلك في قوله تعالى بعد انقضاء القسم الموضوعي الثاني: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عَبْدُؤَرْبِكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (21) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (22) وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْزَنُوا النَّارَ أَنْتُمْ وَفُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارُ أَعْدَتٌ لِلْكَافِرِينَ ﴿ [البقرة: 21-24]:

فقد بينت هذه الآيات موضوعين اثنين:

الأول: في دلالات العبادة، فإن خلقه للمخاطبين ومن سبقهم مع قيام الدليل العقلي من مقتضيات كونه ربًّا، ودلالة الربوبية على الخلق بالتضمن، كما أن المقصد من العبادة وهو التقوى أن يكون الإنسان في عداد المنعم عليهم. ومن دلائل ربوبيته فرش الأرض وبناء السماء في واحدة من ألطف المقابلات القرآنية، ثم ذكر بعض لوازم الربوبية وهو إخراج الرزق من الثمرات الناتج عن إنزال الماء، وهذا من المواضع التي تفصل فيها دلائل الربوبية لإقامة حجة الألوهية، وهو قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 22]، ونقل الطبري عن بعض المفسرين أنه: "عنى بها جميع المشركين من مشركي العرب وأهل الكتاب؛ وقال بعضهم: عنى بذلك أهل الكتابين، أهل التوراة والإنجيل" (40).

الثاني: دلالات التنزيل: فقد نزه المتقين عن الريب في مطلعها، وتوجه بخطاب عالمي عام إلى الناس الذين قد يتطرق الريب إلى قلوبهم أن يأتوا بسورة من مثله، ويستعينوا بشهادتهم أو يستغيثوا بهم، وهم إما آهتهم أو أعوانهم (41)، وهو يعلم قطعاً أنهم لا يقدرّون على ذلك وهو ما من أجله خوفهم ناراً وقودها الناس والحجارة، وهي من الجزاء وتفصيل قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 3].

أما قوله بعدها وهو: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارٌ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25] فهو امتداد في بناء معنى الذين أنعم عليهم، وهذا أمر من الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بإبلاغ بشارته خلقه الذين آمنوا به ومحمداً ﷺ وبما جاء به من عند ربه، وصدقوا بإيمانهم ذلك وإقرارهم بأعمالهم الصالحة، فقال له: يا محمد، بشر من صدقت أنك رسولي - وأن ما جئت به من الهدى والنور فمن عندي، وحقق تصديقه ذلك

(40) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (370/1).

(41) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (44/1).

قولاً بأداء الصالح من الأعمال التي افترضتها عليه، وأوجبها في كتابي على لسانك عليه - أن له جنات تجري من تحتها الأنهار⁽⁴²⁾.

إن بث المعاني إلى حد هاته اللحظة في مطلع البقرة يعود إلى أمه من فاتحة الكتاب، يقول ابن تيمية: "إذا أخبرنا الصادق المصدوق عن الغيب الذي لا نشهده، فإنما نفهم مراده الذي أراد أن يفهمنا إياه لما بين ما أخبر به من الغيب، وبين ما علمناه في الشاهد من القدر الجامع الذي فيه نوع تناسب وتشابه، فإذا أخبرنا عما في الجنة من الماء واللبن والعسل والخمر والحري والدَّهَب، لم نفهم ما أراد إفهامنا إن لم نعلم هذه الموجودات في الدنيا، ونعلم أن بينها وبين ما في الجنة قدرًا مشتركًا وتناسبًا، وتشابهاً يقتضي أن نعلم ما أراد بخطابه، وإن كانت تلك الموجودات مخالفةً لهذه من وجهٍ آخر، كما قال ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»⁽⁴³⁾." (44).

ثم بين قاعدة التفريق بين الله وخلقه فقال "وإذا كان بين المخلوق والمخلوق قدرٌ فارقٌ مع نوعٍ من إثبات القدر المشترك، الذي يقتضي التناسب والتشابه من بعض الوجوه، فمعلوم أن ما بين الخالق والمخلوق من المفارقة والمباينة أعظم مما بين المخلوق والمخلوق، فهذا مما يوجب نفي مماثلة صفاته لصفات خلقه"⁽⁴⁵⁾.

(42) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (383/1).

(43) ذكر الأثر عن ابن عباس الطبري في تفسيره، ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، (392/1)، قلت: إسناده صحيح رجاله ثقات: محمد بن بشار، قال، حدثنا مؤمل، قالاً جميعاً: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي ظبيان، عن ابن عباس. وأبو ظبيان الزاوي عن ابن عباس هو حصيُّ بُن جُنْدَبِ بْنِ عَمْرِو الْجُنَيْي الكَوْثِي، روى له الجماعة. ينظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي (أبو الحجاج)، تحقيق د. بشار عوَّاد معروف، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، 1400هـ-1980م، (447/33)؛ تاريخ الإسلام، الذهبي (شمس الدين)، دار الغرب الإسلامي، ط1، 2003م، (1028/2).

(44) دره تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، 1411هـ-1991م، (124/6).

(45) م.ن، ص.ن.

ثم عاد القرآن إلى قسم موضوعي جديد ابتداءً من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا قَوْهَا﴾ [البقرة: 26] وهذه الآية امتداد لما سبقه من ذكر المثليين المائي والتاري في أحد سببين لنزول الآية ذكرهما ابن الجوزي⁽⁴⁶⁾ وقد بين أن المعني بها إما اليهود أو المنافقون، وهذا الامتداد في السياق طبيعي وجارٍ على ما قبله، والفاصلة من الأدلة لتحديد المقصود حيث أن لفظة «الفاستقين» من المشترك بين المنافقين واليهود وهذا تقريباً أغلب في القرآن، فمن الاستعمال في حق اليهود، قول الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا قَائِمَةً عَلَى أَصُولَهَا فَإِذَنْ لِلَّهِ وَلِيُخْرِجَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: 5]، وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا لِمَ تُوذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: 5]، ومن الاستعمال في حق المنافقين قوله: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]، وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَلَيْتَ اللَّهُ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 96].

ومما أحدثته هذه الآية من جديد المعاني أنها جاءت تكميلاً للآيات السابقة التي وصفت أفعال الكافرين، فوردت هذه لتعرفنا إياهم بالقول أي قولهم: ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾، وهذه العبارة منهم دليل على سوء ظنهم بالله، وعدم فهمهم للقرآن الكريم.

أما عن صفات هؤلاء الفاسقين أي قوله: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27] فإن النظر الأقرب لها قوله في الرعد: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: 25].

"قال مقاتل: نزلت في كفار أهل الكتاب. وقوله تعالى: أُولَٰئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ أي: عليهم"⁽⁴⁷⁾.

(46) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (46/1).

(47) زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي، (493/2).

وقد ذكرت لفظة «ينقضون» في ثلاثة مواضع مرّ منها اثنان في سورتي البقرة، والرعد، وموضع آخر من سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَنْقُضُونَ﴾ [الأنفال: 56]، وقد نزلت في اليهود كما ذكر المفسرون⁽⁴⁸⁾ وهذا ممّا يرجّح بدلالة الفعل بعد دلالة المشترك أنّ الآية في الممتريين من أهل الكتاب، وتحديداً اليهود.

وبعد أن تعرّف الله عزّ وجلّ إلى عباده باسم الرّب، وأنّه الخالق، وأنّه المتنعم بالأرض فراشاً وبالسّماء بناءً، وأنّه الرّازق الذي جعل من الماء كلّ شيء حيّ، وتخصيصاً الخارج من الأرض، يذكر لنا فعلاً آخر من أفعاله الّتي هي مقتضى ربوبيّته وهي الإحياء والإماتة، فهذا المعنى امتداد لقوله «رّب العالمين»، و"قوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28] هو من باب «الالتفات» للتوبيخ والتّقرّيع، فقد كان الكلام بصيغة الغيبة ثمّ التفت فخطبهم بصيغة الحضور، وهو ضرب من ضروب البديع⁽⁴⁹⁾. وهذا يذكّرنا بالالتفات الحاصل بعد تقرير التّوحيد في الفاتحة في قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولعلّه الحجاج القرآنيّ في موضوع العبادة، فمَنْ صفته هكذا من الإحسان والبرّ لا معبود بحقّ إلّا هو.

الخاتمة:

يمكنُ الاطّلاع على امتداد فاتحة الكتاب من خلال سور القرآن الكريم بالنّظر في

المعاني الجوامع وآليات التعبير عنها، وقد بيّنتُ بفضل الله جملةً من المعالم في التّفسير منها:

- ملح حضور الأحرف المقطّعة في كلمات سورة الفاتحة بالتمثيل لها من المفردات النّظائريّة في سورة البقرة أنموذجاً أقصد قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾، وحضور هذه الوحدة الدّلاليّة المفتاحيّة على ثلاثة أنواع: إمّا ترتيبيّة على التّوالي، أو ترتيبيّة لا على التّوالي، أو غير ترتيبيّة، ممّا تتجلّى معه معالم المفردات ويساعد على وضع الكلمات في حقل دلاليّ

⁽⁴⁸⁾ ينظر: م.ن، (219/2).

⁽⁴⁹⁾ صفوة التّفاسير، الصّابوني (محمد علي)، دار الصّابوني للطباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ط 1، 1417هـ-1997م، (39/1).

معينٍ وأنّه ما من كلمة تضمّنتها إلّا وتعبّر عن معنىٍ إجماليٍّ في علاقةٍ متينةٍ بأمّهات المعاني في سورة الفاتحة.

- الذين قالوا إنّ ﴿الَّذِينَ﴾ من أسماء الله، أو كلّ حرفٍ منه دلالةٌ على اسمٍ، أو هو اسمٌ للقرآن، قولهم وجيةٌ وراجحٌ للأسبقية الزمانية اللامتناهية في القدم وللترتيب الذكري، وكذلك بدلالة الاقتران بما بعده من الإشارة للكتاب، وقد بدا لي مغايرة المشار إليه في عالم الغيب للمتنزّل في عالم الشّهادة من حيث تفرد الله عزّ وجلّ بمعرفة مراداته مطلقاً، وإن كانت معانيه ودلالاته لا تنتهى في القدم وإلى الأبد.

- مبحث أسماء الله الحسنى من أصول العلوم والتفسير، وقد مثّلت لذلك بوضع اسم الله الرّحيم في دائرة الأسماء الحسنى الملازمة له، باعتباره اسماً من الأسماء الحسنى التي عليها مدار المعاني الجوامع في سورة الفاتحة ثمّ التفكّر في دلالات الاقتران، وكان ممّا تبين لي أنّ من خلال التمثيل بمطلع سورة البقرة أنّ كثيراً من الآيات تعتبر امتداداً لأنوار هذا الاسم المبارك في فنون القصص والتّشريع والعقائد وتحقّق تجلّيات الرّحمة بوصفها أساساً قرآنيّاً يلمحُ بحسب تمثّل مشهد الرّحمة في السّياق كما أنّ له جماليّاته التي يدركها المتمرّس في اللّغة والبلاغة.

- تقنية التّناظر بين المقاطع، ومقابلة بعضها ببعض، يؤكّد لنا قاعدةً جليّةً في التّفسير، وهي أنّ التّشنية بمحرّك البحث بين وحدات الآي، وتعاهد المعنى السّياقيّ لتحديد المعنى بالنّزول أمرٌ ضروريٌّ لا بدّ منه في تحقيق جماع المعنى.

والله أعلم، وصلى الله وسلّم وبارك على سيّدنا محمّد
وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً.

قائمة المصادر والمراجع:

- الإعراب المفصل لكتاب الله المرتل، صالح (مجت عبد الواحد)، دار الفكر للنشر والتوزيع، ط1، سنة 1413هـ-1993م.
- بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي بيروت-لبنان، د.ط، د.ت.
- البرهان في علوم القرآن، الزركشي (بدر الدين)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، سنة 1376هـ-1957م.
- البلاغة، البيان والبدیع، مناهج جامعة المدينة العالمية، نشر جامعة المدينة العالمية، المرحلة بكالوريوس، كود المادة LARB4093. وهذا الكتاب مندرج ضمن قسم الأدب والبلاغة في المكتبة الشاملة.
- تاريخ الإسلام، الذهبي (شمس الدين)، دار الغرب الإسلامي، ط1، سنة 2003م.
- تأويلات أهل السنة، الماتريدي (أبو منصور)، المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية - بيروت لبنان، ط1، سنة 1426هـ-2005م.
- التبيان في أقسام القرآن، ابن قيم الجوزية، المحقق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ط، د.ت.
- التحرير والتنوير، ابن عاشور (محمد الطاهر)، الدار التونسية للنشر، تونس، د.ط، سنة 1984م.
- التعريفات، الجرجاني (الشريف)، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، سنة 1403هـ-1983م.
- التفسير القرآني للقرآن، الخطيب (عبد الكريم)، دار الفكر العربي القاهرة، د.ط، د.ت.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال، المزي (أبو الحجاج)، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط1، سنة 1400هـ-1980م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي (عبد الرحمن)، عبد الرحمن بن معلا اللويحي، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة 1420هـ-2000م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة 1420هـ-2000م.
- الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه (أبو عبد الله الحسين)، المحقق: د. عبد العال سالم مكرم، الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الكويت، دار الشروق - بيروت، ط4، سنة 1401هـ.
- درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (تقي الدين)، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط2، سنة 1411هـ-1991م.
- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي (محمد الأمين)، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، توزيع: مكتبة الخزاز - جدة، ط1، سنة 1417هـ-1996م.
- رسالة السجزي إلى أهل زبيل في الرد على من أنكر الحرف والصوت، السجزي (أبو نصر عبيد الله)، المحقق: محمد با كرم با عبد الله، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط2، سنة 1423هـ-2002م.
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين، ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ط، سنة 1403هـ-1983م.
- زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (أبو الفرج)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، سنة 1422هـ.

- صحيح البخاري، البخاري (أبو عبد الله محمد)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، ط1، سنة 1422هـ.
- صحيح مسلم، مسلم (أبو الحسين الحجاج)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د.ط، د.ت.ط.
- صفوة التفاسير، الصابوني (محمد علي)، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، سنة 1417هـ-1997م.
- علم البيان، عتيق (عبد العزيز)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، د.ط، سنة 1405هـ-1982م.
- فضائل القرآن، ابن سلام (أبو عبيد القاسم)، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، دار ابن كثير (دمشق - بيروت)، ط1، سنة 1415هـ-1995م.
- مجموع الفتاوى، ابن تيمية (تقي الدين)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، د.ط، سنة 1416هـ-1995م.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، الطبعة الأخيرة، سنة 1408هـ-1988م.
- مسند الإمام أحمد، ابن حنبل (أبو عبد الله أحمد)، تحقيق شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، سنة 1421هـ-2001م.
- المطالب العالمة بزوائد المسانيد الثمانية، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: مجموعة من الباحثين في 17 رسالة جامعية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة للنشر والتوزيع - دار الغيث للنشر والتوزيع، ط1، د.ت.
- معجم الفروق اللغوية، العسكري (أبو هلال)، تحقيق: الشيخ بيت الله بيّات، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين ب «قم»، ط1، سنة 1412هـ.
- الماوردي (أبو الحسن)، النكت والعيون، المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية - بيروت-لبنان، د.ط، د.ت.
- المثاني والسبع المثاني في القرآن العظيم: تجليات وآفاق، سعيد (محمد علي)، مجتمعات الأطرش للكتاب المختص تونس، ط1، سنة 2023.